اذا لم تشاهد غير حسن شياتها
وأعضائها فالحسن عنك مغيب

ففرق كبير بين ان تنظر الى المرأة كشيطان وان تنظر اليها كانسان وان تنظر اليها كملك ـ وفرق كبير فى كل شىء فى الوجود يعرض على أنظار الناس

وكل انسان له نظراته فى العالم من اسفل شىء الى أرقى شىء ، من مادة تحيط به ومال يعرض عليه وأعمال تتعاقب أمام نظره والله يعبده ـ هو فى كل ذلك قد يكون سخيفا فى نظراته ، وضيعا فى رأيه ، وضيعا فى حكمه . وقد يبلغ فى ذلك كله من السمو منزلة قل أن تنال . وعمل الثقافة ان تنتشله من تلك النظرات الوضيعة الى هذه النظرات السامية

وليست نظرات الانسان الى الحياة قوالب من طوب ، كل قالب مستقل بنفسه ، محدودة بحدود ، انما هى كسائل لطيف اذا لوثت نقطة منه بلون شع اللون فى سائر السائل ، واذا سخنت جزءا منه وزع حرارته على السائل كله حتى يتعادل ـ بل الرؤى والنظرات ألطف من ذلك وأدق وأرق . فاذا رقى النظر الى شىء أثر ذلك رقيا فى سائر النظرات ، فكل نظرات الحياة متأثرة بنظرك الى نفسك والعكس ، بل نظرك الى الله تعالى متأثر بنظرك الى عالمك المحيط بك ـ وهذا ما يجعل الثقافة فى أية ناحية من النواحى الأدبية والعلمية يؤثر أثرا كبيرا فى النواحى الأخرى حتى ما نظن أن ليست له صلة به . وقد أصاب صديقى يوما اذ كان يقول « ان رقى الامة فى الموسيقى وتذوقها الصوت الجميل والغناء الجميل يجعلها تتعشق الحرية وتأنف الضيم وتأبى المذلة » فمحيط المخ والعقل والشعور محدود ، كل ذرة فيه تتأثر بأقل شىء وتؤثر بما تأثرت ـ والفكرة الجديدة قد تدخل فى الفكر فتقلبه رأسا على عقب وتجعل من صاحبه مخلوقا جديدا يقل وجه الشبه بينه وبين ما كان من قبل ، فتجعله فى أعلى عليين أو أسفل سافلين

ان كان هذا صحيحا ، وكانت قيمة الثقافة الذاتية فى مقدار ما توقفه فى المثقف من وجهة النظر الى الاشياء وتقويمها تبعا

بل . . . صفحة بيضاء !

للأستاذ حسن جلال

كتب الأستاذ الكبير ـ أحمد أمين ـ تحت عنوان « صفحة سوداء » مقالا عن مصر كما يراها بعض مؤرخى العرب . فجمع كثيرا مما قاله القوم فى المصريين وفى طبيعة بلادهم . وكيف أن أرض مصر « تولد الجبن والشرور الدنيئة فى النفس حتى أن الأسد لم تسكنها ـ وهى إذا دخلت أرضها ذلت ولم تتناسل ! وكلابها أقل جرأة من كلاب غيرها من البلدان ، وكذلك سائر ما فيها أضعف من نظيره فى البلدان الأخرى » اه

وقد تفضل الأستاذ فرد على هذه التهم ولا سيما التهمة المسندة إلى كلاب مصر فانه أبدع فى تفنيدها وأشاد بذكر أرمنت وما يستطيع أن يفعله كلابها بجلد المؤرخ الذى فرط منه ذلك القول ونحن نشكره هنا . . بلسان أرمنت وما فيها !

ولكن بقيت بعد ذلك تهمتان نريد أى نقول نحن أيضاً فيهما كلمتين : أما التهمة الأولى فهى الخاصة بأرض مصر وأن الأسد لا تسكنها ، وأنها إذا سكنتها ذلت ولم تتناسل فيها لأنها ترث الجبن من هذه الأرض . وهذا قول عجيب ، فكأن التناسل من أعمال الشجاعة فى نظر ذلك المؤرخ الذى يحيط علمه الواسع ولا شك بما قال الشاعر من أن

« بغاث الطير أكثرها فراخا »

والحقيقة الواقعة أن التناسل لا دخل له بالقوة ولا بالضعف

جديدة اقرب الى الصحة ، أسلمنا ذلك الى نتائج خطيرة ـ فدين خير من دين بمقدار ما نحاول تعاليمه من رفع مستوى النظر الى الله تعالى والى الحياة ـ وعلم خير من علم باعتبار ما يؤدى اليه من نظر راق صحيح ـ وثقافة الانسان لا تقدر بمقدار ما قرأ من الكتب وما تعلم من العلوم والآداب ولكن بمقدار ما أفاده العلم ، وبمقدار علو المستوى الذى يشرف منه على العالم ، وبمقدار ما أوحت اليه الفنون من سمو فى الشعور وتذوق للجمال .

أحمد أمين

ولا بالجبن ولا بالشيخوخة . على أنه يكفيني في هذا الصدد بأن نحيل حضرة المؤرخ المحترم — كما يقول البرلمانيون — الى حدائق الحيوان بالجيزة فهي كفيلة وحدها بالرد على دعواه . وفي (بيت الأسود) فيها من الأشبال الكثيرة التي نبتت على أرض مصر وتحت سمائها ما يكفي لتفنيد مزاعمه !

***

والآن بقيت تهمة أرض مصر بأنها تفسد أهل مصر وتجعل ما في مصر أضعف من نظيره في البلدان الاخرى . وهذا ما نريد أن نقول فيه كلمة قصيرة . ونحن نطمع في أن يتصدى للادلاء بالقول الفصل في هذا الموضوع رجال هم أقدر منا على ذلك بحكم عملهم ووقتهم واطلاعهم . على أنا نرى الموضوع لا يكفي فيه رد واحد يطلق في صحيفة واحدة ثم تنطوي الصفحة وينسدل الستار ، ونبقى نحن على ما عشنا فيه من الاتهام بالذل والضعف حتى من بعض مؤرخي العرب كأن لم يكفنا ما نلقاه نحن وهم على يد الافرنج من التجني إذ يقرنون عنا - Les Arabes - ويقصدون بهذه اللفظة المفردة كل ما تنطوي عليه الفاظ الوحشية والهمجية والتأخر من المعاني !

ولعل الوقت الحاضر أنسب الاوقات للاكثار من البحث في هذا الموضوع ورد الحق الى نصابه والاشادة بمكانة المصري ومقدرته وما يمكن أن يأتيه من جلائل الأعمال لو تهيأت له الظروف . فلقد رأينا أخيرا أن هذه الدعوى التي رمانا بها مؤرخو العرب وغيرهم قد بات يحلو ترديدها في فم بعض المصريين أنفسهم عن يقين منهم بصحتها . وتلك آفة الآفات والنكبة التي ما بعدها نكبة لهذه البلاد ، فان الايحاء أفعل من السحر . وانك لتستطيع أن تستأنس النمر الشرس لو أتيح لك أن تفهمه أنه هر أليف ؛ ثم تمضي ترددعلى سمعه هذا القول الهراء . فلينظر الذين يحلو لهم ترديد مثل ذلك القول المنكر إلى أين يهبطون بأنفسهم وبجيلهم وهم يهرفون بما لا يعرفون !

لقد قالوا إن الشعب المصري شعب ذليل بحكم سمائه وارضه . كذبوا : فان سماء مصر وأرضها لا تنبتان الذل . وانما تنبتان العزة والقوة والقدرة على الاستذلال . وإني لأستكين أن أذكر الفراعنة في هذا الصدد حتى لا يقال احتمى بمجد أمة ماضية ، ولاذ بعزة قوم غابرين . ولكني أكتفي بأن أنظر الى ما عليه مصر الآن . فان هذه البلاد العجيبة لم ينقض على نهضتها الأخيرة ربع قرن ، ومع ذلك برز من بين أبنائها أبطال عالميون في مختلف ميادين الحياة . لقد ظهر فيها اسماعيل سري المهندس ، وعلي ابراهيم الجراح ، وخليل عبد الخالق البيولوجي ، ونبتت فيها لطفية النادي الطيارة ، ومحمود مصطفى المصارع ، وسيد نصير الرباع ، ونشأ بين أرضها وسمائها طلعت حرب المالي الكبير . ولست أذكر رجالا ظهروا في مستهل هذه النهضة ففتحوا الشام وهزموا الوهابيين واستعمروا السودان . فكل أولئك وغيرهم ما كادوا يلجون ميادين أعمالهم حتى تخطوا كل قرنائهم في أنحاء العالم . وحملوهم على التنحي لهم عن الصدر فتبوأوه ورفعوا راية مصر عالية فوق رءوس الجميع .

فما هو مدلول هذه الظاهرة عند كل ذي عينين غير أن الأمة التي أنجبت كل دولا . الأبطال في جيل واحد — وفي هذه الظروف القاسية التي تجتازها مصر الآن — لا يمكن أن يكون معدن أهلها كمعدن أهل غيرها من بلاد الله . وأنها لابد تمتاز على من عداها في حسن فطرتها وقوة ملكاتها وسلامة استعدادها .

ولئن كانت قد طغت على هذه البلاد موجات من الضعف والتأخر فهذه هي سنة الطبيعة في كل شيء . فما من شعب يدعي اضطراد سيره في سبيل التقدم والرقي منذ خلقه الله ، وأنه لم يطرأ عليه من عوامل الضعف ما جعله فريسة لغيره من الشعوب (وتلك الايام نداولها بين الناس)

ولئن صح ما يقال من أن دولا كثيرة استعمرت مصر ، فصحيح أيضا أن مصر من دون البلاد التي استعمرت كانت هي التي تأكل مستعمريها وتطبعهم بطابعها قبل أن تتطبع هي بطابعهم !

لقد حكم الاتراك مصر واشتهرت تركيا بفخامة مساجدها وعظمة قصورها . وأن هذه المساجد وتلك القصور لتشهد للصانع المصري بأنه هو الذي زينها ووشاها ، ورفع سمكها وسواها .

ولقد ولى (محمد علي الكبير) أمر مصر ولم تك إلا نفحة قوية من صدره الشديد حتى انجاب عن جمرة مصر رمادها الذي خلفه عليها عجز المماليك ، فتوهجت هذه الجمرة وتضرمت لهيبا ثم اشتعل واندلع لسانه طويلا فلف فلسطين والشام والحجاز والسودان وكاد يحرق استامبول نفسها ؛ وروعت أوربا من طغيانه نحوها ، وأشفقت على سلطانها في الشرق أن تلفحه هذه النار ، فاجتمع العالم الغربي